الباب الأول

اتجاه حماية الاستعمار
أو
الاتجاه الفكرى المالئ

- مفكرون من المسلمين مع الاستعمار.
- المستشرقون والاستعمار.

مفكرون من المسلمين... مع الاستعمار

ذكرنا أن الاتجاه الفكرى المماليء للاستعمار اتخذ صورتين:

* **صورة محلية:** نشأت وتبلورت داخل الشعوب الإسلامية... أنشأها ونماها مفكرون من المسلمين أنفسهم.

* **وصورة أخرى تكونت فى الخارج:** قام بها القساوسة الغربيون، وأصحاب الدراسات السامية اللغوية والدينية التى عنيت بدراسة العهدين القديم والجديد (التوراة والإنجيل) وما يتصل بهما من فروع علمية فى الجامعات الغربية.

وهاتان الصورتان ليستا منفصلتين إلا فى ظاهر الأمر فقط.. وواقع الحال أن الصلة بينهما وثيقة، وأن إحداهما تعتبر مرآة للأخرى، أو أن إحداهما تعتبر عاملاً محركًا والأخرى نتيجة لها.

ومن المفكرين المسلمين الذين يمثلون الصورة الأولى من هاتين الصورتين: الزعيم الإسلامى فى الهند، السير «سيد أحمد خان» كما يمثلها من العقائد الإسلامية التى جدت -كأثر لتوجيه الاستعمار الغربى- مذهبا القاديانية والأحمدية فى الهند أيضًا.

والدعوى التى ادعاها السيد أحمد خان باسم الإصلاح والتقدمية تعتبر مقدمة وتمهيدًا لنشأة القاديانية، تلك العقيدة التى تفرع عنها فيما بعد، ذلك المذهب الذى يعرف بالأحمدية.

حركة أحمد خان:

تذكر مجلة «العروة الوثقى» - للسيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده وقد صدر العدد الأول منها فى ١١ مارس سنة ١٨٨٤ وصدر العدد الأخير (وهو الثامن عشر) فى ١٧ أكتوبر سنة ١٨٨٤ - فى أحد أعدادها وصفًا لهدف الحركة التقدمية التى قام بها السيد أحمد خان[1] فى الهند فتقول:

---

(١) ١٧ أكتوبر سنة ١٨١٧-١٨٩٨م. وله مؤلفات «حياة محمد» سنة ١٨٧٠، و«تفسير القرآن» ١٨٨٠-١٨٩٥ إلى سورة الكهف، وتفسير الإنجيل وقد سماه: «تبيان الكلام» سنة ١٨٦٢.

«. . . لما استقرت أقدامهم - الإنجليز- فى الهند وألقوا به عصاهم، ومحيت آثار السلطنة التيمورية (نسبة إلى تيمورلنك مؤسس دولة المغول فى القرن السادس عشر الميلادى)، نظروا إلى البلاد نظرة ثانية فوجدوا فيها خمسين مليونًا من المسلمين، كل واحد منهم مجروح الفؤاد بزوال ملكهم العظيم، وهم يتصلون بملايين كثيرة من المسلمين شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا. وأحسوا أن المسلمين ما داموا على دينهم، وما دام القرآن يتلى بينهم، فمحال أن يخلصوا فى الخضوع لسلطة أجنبى عنهم، خصوصًا إن كان ذلك الأجنبى خطف الملك منهم بالخديعة أو المكر تحت ستار المحبة والصداقة! فطفقوا - الإنجليز- يفتشون بكل وسيلة لتوهين الاعتقاد الإسلامى، وحملوا القسس والرؤساء الروحانيين على كتابة الكتب ونشر الرسائل، محشوة بالطعن فى الديانة الإسلامية، مفعمة بالشتائم والسباب لصاحب الشريعة - برأه الله مما قالوا - فأتوا من هذا العمل الشنيع ما تنفر منه الطباع، ولا يمكن معه لذى غيرة أن يقيم على أرض تنتشر فيها تلك الكتب، وأن يسكن تحت سماء تشرق شمسها على مرتكبى ذلك الإفك العظيم!».

«وما قصدهم بذلك إلا توهين عقائد المسلمين: وحملهم على التدين بمذهب الإنجليز! هذا من جهة، ومن جهة أخرى أخذوا فى تضييق سبل المعيشة على المسلمين وتشديد الوطأة عليهم والإضرار بهم من كل وجه: فضربوا على أيديهم فى الأعمال العامة، وسلبوا أوقاف المساجد والمدارس، ونفوا علماءهم إلى جزيرة «أندومان» رجاء أن تفيدهم هذه الوسيلة - إن لم تفدهم الأولى- فى رد المسلمين عن دينهم بإسقاطهم فى أغوار الجهل بعقائدهم حتى يذهلوا عما فرضه الله عليهم!»

«فلما خاب أمل أولئك الحكام الجائرين فى الوسيلة الأولى، وطال عليهم الأمد فى الاستفادة من الثانية، نزعوا إلى تدبير آخر فى إزالة الدين الإسلامى من أرض الهند أو إضعافه، لأنهم لا يخافون إلا من المسلمين أصحاب ذلك الملك المنهوب والحق المسلوب! فاتفق أن رجلاً اسمه «أحمد خان بهادور» - لقب تعظيم فى الهند - كان يحوم حول الإنجليز لينال فائدة من لديهم، فعرض نفسه عليهم وخطا بعض خطوات لخلع دينه، والتدين بالمذهب الإنجليزى!! وبدأ الأمر بكتابة كتاب[1] يثبت فيه أن التوراة والإنجيل ليسا محرفين ولا مبدلين لينال بذلك

(١) اسمه: «تبيان الكلام» أخرجه فى سنة ١٨٦٢، وفسر فيه الإنجيل.

الزلفى عندهم! ثم راجع نفسه فرأى أن الإنجليز لن يرضوا عنه حتى يقول: إنى نصرانى، وإن هذا العمل الحقير لا يؤتى عليه أجرًا جزيلاً، خصوصًا وقد أتى بمثل كتابه ألوف من القسس والبطارقة. وما أمكنهم أن يحولوا من المسلمين عن الدين أشخاصًا معدودة! فأخذ طريقًا آخر فى خدمة حكامه الإنجليز: بتفريق كلمة المسلمين وتبديد شملهم، فظهر بمظهر الطبيعيين الدهريين ونادى بأن لا وجود إلا للطبيعة العمياء، وليس لهذا الكون إله حكيم «إن هذا إلا الضلال المبين!» وأن جميع الأنبياء كانوا طبيعيين لا يعتقدون بالإله الذى جاءت به الشرائع- «نعوذ بالله!» ولقب نفسه بالطبيعى. وأخذ يغرى أبناء الأغنياء من الشبان الطائشين، فمال إليه أشخاص منهم، تملصًا من الشرع الشريف وسعيًا خلف الشهوات! فراق الحكام الإنجليز مشربه، ورأوا فيه خير وسيلة لإفساد قلوب المسلمين، فأخذوا فى تعزيزه وتكريمه وساعدوه على بناء مدرسة فى «عليكرة» وسموها مدرسة «المحمديين» لتكون فخًا يصيدون به أبناء المؤمنين ليربوهم على أفكار هذا الرجل «أحمد خان بهادور»!

«وكتب «أحمد خان» تفسيرًا[1] على القرآن الكريم، فحرف الكلم عن مواضعه وبدل ما أنزل الله!

«وأنشأ جريدة باسم «تهذيب الأخلاق» لا ينشر فيها إلا ما يضلل عقول المسلمين، ويوقع الشقاق بينهم، ويلقى العداوة بين مسلمى الهند وغيرهم - خصوصًا بينهم وبين العثمانيين. وجهر بالدعوة لخلع الأديان كافة، لكن لا يدعو إلا المسلمين!! ونادى: الطبيعة الطبيعة!، ليوسوس للناس بأن أوربا ما تقدمت فى المدنية وما ارتفعت فى العلم والصنعة، . وما فاقت فى القوة والاقتدار، إلا برفض الأديان، والرجوع إلى الغرض المقصود من كل دين - على زعمه - وهو: بيان مسالك الطبيعة. . . . قد افترى على الله كذبًا!

«ولما كنا بحيال الدين فى الهند - فى سنة ١٨٧٩ - أحسسنا من بعض ضعاف العقول اغترارًا بترهات الرجل وتلامذته، فكتبنا رسالة فى بيان مذهبهم الفاسد

(١) عمل فى هذا التفسير من سنة ١٨٨٠ إلى ١٨٩٥ م وانتهى فيه إلى سورة الكهف.

وما ينشأ عنه من المفاسد، وأثبتنا أن الدين أساس المدنية وقوام العمران، وطبعت رسالتنا فى اللغتين الهندية والفارسية (اسمها: الرد على الدهريين).

«هؤلاء الدهريون ليسوا كالدهريين فى أوربا، فإن من ترك الدين فى البلاد الغربية تبقى عنده محبة أوطانه، ولا تنقص حميته لحفظ بلاده من عاديات الأجانب، ويفدى مصلحتها بروحه. أما أحمد خان وأصحابه، فإنهم كما يدعون الناس لنبذ الدين، يهونون عليهم مصالح أوطانهم ويسهلون على النفوس تحكم الأجنبى فيها، ويجتهدون فى محو آثار الغيرة الدينية والجنسية... لا لأجر جزيل ولا شرف رفيع، ولكن لعيش دنىء ونفع زهيد. وهكذا يمتاز دهرى الشرق عن دهرى الغرب: بالخسة والدناءة، بعد الكفر والزندقة!!»[1].

ويقول السيد جمال الدين الأفغانى فى عدد آخر من أعداد هذه المجلة[2]:

«... من هذا - من أسباب السياسة الأوربية - ما سلك الإنجليز فى الهند لما أحسوا بخيال السلطنة يطوف على أفكار المسلمين منهم، لقرب عهدها بهم، وفى دينهم ما يبعثهم على الحركة إلى استرداد ما سلب منهم، وأرشدهم البحث فى طبائع الملل إلى أن حياة المسلمين قائمة على الوصلة الدينية، وما دام الاعتقاد المحمدى والعصبية الملية سائدة فيهم فلا تؤمن بعثتهم إلى طلب حقوقهم. فاستهووا طائفة ممن يتسمون بسمة الإسلام ويلبسون لباس المسلمين؛ وفى صدورهم غل ونفاق وفى قلوبهم زيغ وزندقة، وهم المعروفون فى البلاد الهندية «بالدهريين والطبيعيين»! فاتخذهم الإنجليز أعوانًا لهم على إفساد عقائد المسلمين، وتوهين علائق التعصب الدينى ليطفئوا بذلك نار حميتهم، ويبددوا جمعهم ويمزقوا شملهم. وسادوا تلك الطائفة على إنشاء مدرسة عليكرة. ونشر جريدة لبث هذه الأباطيل بين الهنديين، حتى يعم الضعف فى العقائد، وتهن الصلات بين المسلمين فيستريح الإنجليز فى التسلط عليهم...»!!

فحركة السيد أحمد خان. كانت تقوم على الافتتان بالعلم الطبيعى والحضارة الغربية المادية، كما يفتتن فى عصرنا الحاضر بعض المفكرين بما يسمى «العلم»

---

(١) «العروة الوثقى» ص٥٧٢-٥٧٥.

(٢) ص٩٦.

Science وبالمركبات الحضارية التى قامت عليه. والافتتان بالعلم الطبيعى أو بالطبيعة كما يقال يؤدى إلى خفة وزن القيم الروحية والمثالية، وهى القيم التى تقوم عليها رسالة الأديان السماوية التى يمثلها الإسلام أوضح تمثيل، وقد يصير الافتتان بهذا العلم الطبيعى إلى إنكار كل قيمة أخرى مما لا يشاهد فى الطبيعة ويدرك بالحس الإنسانى. ومن هنا ربط السيد جمال الدين الأفغانى بين إلحاد السيد أحمد خان ومذهبه الدهرى أو الطبيعى - مع بقاء انتسابه إلى الإسلام، ونعته بالإلحاد... رغم ما كان يكرره (السيد أحمد خان) من القول بأنه يدافع عن الإسلام، وأنه يبغى أن يوجد طريقًا للمسلم المعاصر: يوفق فيه بين إسلامه وتقبله الحياة العصرية التى قامت إثر نهضة العلم الطبيعى!!

وقد نهج السيد أحمد خان فى تفسيره للقرآن الكريم، على تطبيق آياته على أساس طبيعى، مما يناقض تمامًا القول بالمعجزات وخوارق العادات. ولهذا جعل «النبوة» غاية تحصل وتكتسب عن طريق الرياضة النفسية، فهى غاية إنسانية طبيعية، وطريقها طريق إنسانى غير خارق للعادة! ولكنه مع ذلك يقر ختم الرسالة الإلهية ببعثة المصطفى عليه الصلاة والسلام.

وفى شرحه لآيات القتال، أضعف من فرضية «الجهاد» فى الوقت الحاض. كما أنه فى الآيات الأخرى الخاصة بـ«أهل الكتاب» عبر فى غير لبس عن توهين الفجوة بين أهل الكتاب من جانب والمسلمين من جانب آخر!! وطلب التعاون بين المسلمين والغربيين، ودعا إلى ما أسماه «إنسانية الأديان»، أى المعنى الإنسانى العام الذى تدعو الأديان السماوية إلى اعتباره وحفظه! وهو ما يشبه اليوم فكرة «العالمية»، التى تتبناها اليهودية الرأسمالية والشيوعية الدولية؛ وقد كانت من قبل تلقب بالفكرة «الماسونية»! وفى هذه الفكرة تنمحى كل الفوارق بين الأوطان والقوميات والأديان والمذاهب!!

ولم يكن السيد أحمد خان داعية فقط لهذا التجديد، أو لهذه التقدمية فى الإسلام، وإنما كان كذلك صحفيًا ومؤلفًا، ومدرسًا ومشرفًا على كلية علمية[1]

(١) وقد افتتحت فى مايو سنة ١٨٧٥م.

دينيـة (الكلية الإنجليـزية الشرقـية المحـمدية)، خـرجت الكثيـر من شبـاب الهند التـقدمـيين، وتحولت الآن إلى «الجـامعـة الإسلامـية» فى الهند بعـد تقسـيم سنة ١٩٤٨م، وفيـها تدرس المسيحـية بالعناية التى يدرس بها الإسـلام، مع أخذ حظ وافر من العلوم الحديثة والنظم الجامعية الغربية (الإنجليزية).

ولهذا كان لـلسيد أحمد خـان نفوذ سياسى تربوى، يقـترن بنزعته التـجديدية الدينية، أثرت بدورها فيما بعد فى خلق المذهب «القادياني».

• المذهب القادياني:

بقيت تعاليم السيد أحمـد خان وآراؤه ذات طابع إصلاحى، ولم تصطبغ بصبغة العقيـدة والمذهب الروحى، فمهمـا بلغت من التأثير فسيـبقى معهـا مجال للروح الإسلاميـة الصحيحة، حيث تظـهر وتعمل عملها فى تحـديد العلاقة بين المسلمين وبين المستعمرين الصليبيين الغربيين الذين يطالبونهم بالولاء!! أدرك الإنجليز ذلك، وأحسـوا مع نشاط السيد أحـمد خان وأثر تعاليـمه فى خلق جمـاعة بين المسلمين تتشكك فى القيم الإسلامية، وتنازل مواطنيـها ومن هم على عقيدتها من المسلمين منازل الخصومة الفكرية، فـتفرق الكلمة وتبعد مشكلة الاسـتعمار الأجنبى عن أن تكون موضوعًا من موضوعات هذه الخصومة ولو إلى حين. . أدركوا وأحسوا أنهم بحاجة إلى تعديل فى الروح الأصيلة وفى موقفها من غير المسلمين، على أن يكون هذا التعديل - أو يصبح - مذهبًا وعقيدة له سمة الإيمان والاعتقاد، بدلاً من سمة الفكر والمنطق. بذلك تصبح الفـجوة بين المسلمين أعمق وأطول مـدى!! فإذا كان هذا التعديل لصالح الاستعمار فـسيجد أعوانًا من المسلمين أنفسهم على المسلمين، وتلك حالة مرغوب فيها لاطمئنان الاستعمار على مصالحه حينئذ فترة طويلة، إلى أن يجد عامل آخر أقـوى من الدين نفسه يجمع الكلمة المفرقـة. وينسى الخصومة فى المذهب، والاتجاه الفكرى. فقامت القاديانية[1]، وسجل هذا المذهب رسمياً فى سنة ١٩٠٠م، وله أتباع فى البنجاب وأفغانسـتان وإيران. ولسـان حال هذه العقيدة «مجلة الأديان» The Review of Religions بالإنجليزية، التى تصدر كل شـهر مرة فى قاديان منذ ١٩٠٢م. وصاحب هذا المذهب - وهو ميرزا غـلام أحمد - ألف

(١) نسبة إلى ميرزا غلام أحمد القادياني (من قاديان بإقليم البنجاب)، توفى سنة ١٩٠٨م.

كتابًا سماه «براهين الأحمدية» وخرج الجزء الأول منه سنة ١٨٨٠م... وفى هذا الجزء ادعى المؤلف أنه (المهدى)!

ويختلف هذا المذهب مع الإسلام الأصيل فى جملة مسائل:

* منها أن يقول: إن عيسى هاجر بعد أن بعث من موته الظاهرى، إلى كشمير فى الهند، لينشر تعاليم الإنجيل فى البلاد، وأنه توفى بعد أن بلغ من العمر ١٢٠ سنة، وأن قبره لم يزل موجودًا هناك!. ويدعى ميرزا غلام أحمد أنه (المهدى)، ويذكر أنه حل فيه عيسى ومحمد على السواء، فهو نبى!

* ومن المسائل أيضًا التى يفترق فيها الإسلام الصحيح عن القاديانية: مسألة «الجهاد فى سبيل الله»: فليس الجهاد فى نظرها هو اللجوء إلى العنف باستخدام أدوات الحرب ضد غير المؤمنين، وإنما هو وسيلة سلمية للإقناع. وهكذا عملت القاديانية فى هاتين المشكلتين على هذا النحو على تقريب شقة الخلاف بين المسيحية والإسلام أو على إدماج إحداهما فى الآخر، ثم من جهة أخرى، أعلنوا إبطال الجهاد المعروف على عهد الرسول ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم أجمعين!! وتبعًا لرأيهم السابق أوقفوا العمل بمدلول هذه الآيات الكريمة:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١].

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٥٧].

ويقول (أبو الحسن الندوى) من كبار علماء الهند فى كتيب له عنوانه: (القاديانية ثورة على النبوة المحمدية والإسلام):

«... قد تحقق علمياً وتاريخياً أن القاديانية وليدة السياسة الإنجليزية. فقد أهم بريطانيا وأقلقها حركة المجاهد الشهير السيد الإمام (أحمد بن عوفان الشهيد)

(١٨٤٢م) وكيف ألهب شعلة الجهاد والفداء، وبث روح النخوة الإسلامية والحماسة الدينية فى صدور المسلمين فى الربع الأول من القرن التاسع عشر المسيحى وكيف التف حوله وحول دعاته آلاف المسلمين، عانت منهم الحكومة الإنجليزية فى الهند مصاعب عظيمة، وكانوا موضع اهتمامها.

ثم رأت دعوة السيد (جمال الدين الأفغانى) تنتشر فى العالم الإسلامى، كل ذلك رأته الحكومة الإنجليزية ودرسته، وعرفت أن طبيعة المسلمين طبيعة دينية، فالدين هو الذى يثيرها، وأن المسلمين لا يؤتون إلا من العقيدة والإقناع الدينى، وما يكون له طابع دينى. واقتنعت أخيراً بأنه لا يؤثر فى المسلمين وفى اتجاههم مثل ما يؤثر قيام رجل منهم باسم منصب دينى رفيع ويجمع حوله المسلمين ويخدم سياسة الإنجليز، ويؤمنهم من جهة المسلمين وعائلتهم، وفى شخص (ميرزا غلام أحمد القادياني) الذى كان مضطرب الأفكار والعقيدة وكان طموحًا إلى أن يؤسس ديانة جديدة ويكون له أتباع مؤمنون ويكون له مسجد واسم فى التاريخ مثل ما كان للنبى ﷺ.. وجد الإنجليز وكيلاً لهم يعمل بين المسلمين لمصلحتهم. ولم يزل يتدرج فى التجديد إلى المهدوية.. ومن المهدوية إلى المسيحية.. ومن المسيحية.. إلى النبوة.. حتى أتم ما أراد الإنجليز. وقام القادياني بدوره وبما كلف به خير قيام، وحماه الإنجليز ومكنوه من نشر دعوته. وحفظ القادياني هذه اليد، وعرف الفضل للإنجليز فى ظهوره. وقد صرح فى بعض كتاباته بأنه غرس غرسته الحكومة الإنجليزية، كتب ذلك فى التماسه الذى قدمه إلى حاكم مقاطعة البنجاب الإنجليزى فى ١٤ نوفمبر سنة ١٨٩٨م، وجاء نصه فى كتاب: (تبليغ رسالته) من المجلد السابع لمير قاسم على القادياني. وقد ذكر فى مؤلفاته بكل صراحة - بل بكل وقاحة - ما يدين به للحكومة الإنجليزية من الولاء والوفاء، وما قدم لها من خدمة مشكورة، وإليك ترجمته: (لقد قضيت معظم عمرى فى تأييد الحكومة الإنجليزية ونصرتها. وقد ألفت فى منع الجهاد ووجوب طاعة أولى الأمر الإنجليز من الكتب والنشرات ما لو جمع بعضه إلى بعض لملأ خمسين خزانة، وقد نشرت جميع هذه الكتب فى البلاد العربية، ومصر والشام وكابل)»[1].

(١) من كتاب «ترياق القلوب» ص١٥ -تأليف ميرزا غلام أحمد القادياني.

ويقول (أبو الحسن الندوى) فى موضع آخر:

«وبقيت الجماعة القاديانية فى عهد مؤسسها وبعده معتزلة عن جميع الحركات الوطنية وحركة التحرير والجلاء فى الهند، صامتة - بل شامتة - لما دهم العالم الإسلامى من رزايا ونكبات على يد المستعمرين الأوربيين وعلى رأسهم الإنجليز، مقتصرة على إثارة المناقشات الدينية، والمباحثات حول موت السيد المسيح وحياته ونزوله، ونبوة ميرزا غلام أحمد، مما لا اتصال له بالحياة العامة، والمسائل الإسلامية، والحركات التى كانت مظهراً للغيرة الإسلامية والشعور السياسى فى هذه البلاد».

ويقول أيضًا:

«إن القاديانية تنشر فى العالم الإسلامى الفوضى الفكرية، وعدم الثقة بمصادر الإسلام الصميمة ومراجعه وسلفه، وتقطع صلة هذه الأمة عن ماضيها وعن خير أيامها وأفضل رجالها، وتفتح باب الأدعياء والمتطفلين على مصراعيه وتسىء الظن بقوة الإسلام وحيويته وإنتاجه وتيئس المسلمين من مستقبلهم».

الأحمدية:

وانشقت القاديانية - بعد نشأتها بقليل - إلى شقين، وتفرع عنها ما يعرف باسم «الأحمدية»، أو «جماعة لاهور». وزعيما هذا الفرع: «خواجه كمال الدين» و«مولاى محمد على». ولهذا الفرع نشاط كبير فى الخارج، فى آسيا وأوربا. وقد انتهى مولاى محمد على من ترجمة القرآن الكريم إلى الإنجليزية فى سنة ١٩٢٠م، وألف كتابه (الإسلام) فى ١٩٣٦م. ويبلغ عدد الأحمدية نحو نصف مليون، منهم ستون ألفًا من الهند.

والفرق بين (القاديانية) الأصلية وبين هذه الشعبة التى تعرف باسم (الأحمدية) أو باسم (جماعة لاهور): أن هذه الشعبة تنظر إلى (ميرزا غلام أحمد) مؤسس المذهب على أنه مصلح دينى فقط، بينما تنظر إليه القاديانية على أنه نبى مرسل.

ففى كتاب «حقيقة النبوة» لميرزا بشير أحمد الخليفة الثانى: أن (غلام) أفضل من بعض أولى العزم من الرسل (ص٢٥٧) وفى صحيفة الفضل (المجلد الرابع عشر ٢٩ أبريل سنة ١٩٢٧م): أنه كان أفضل بكثير من الأنبياء، ويمكن أن يكون أفضل من جميع الأنبياء، وفى صحيفة الفضل (المجلد الخامس): «لم يكن فرق بين أصحاب النبى ﷺ وتلاميذ ميرزا غلام أحمد، إلا أن أولئك رجال البعثة الأولى وهؤلاء رجال البعثة الثانية». وفى عدد ٩٢ بتاريخ ٢٨ مايو سنة ١٩١٨م من الفضل (المجلد الثالث): «ميرزا هو محمد ﷺ، وهو مصدق القرآن الكريم: اسمه أحمد».

وبمساعدة الأخير للحركة التقدمية التى قام على الدعوة إليها سير «أحمد خان»، وكذا للمذهب القاديانى الذى أسسه (ميرزا غلام أحمد) شهدت الهند الإسلامية - أو شهد العالم الإسلامى كله - فرقة أخرى فى التوجيه والعقيدة بين المسلمين، كما شهد مظهراً فكرياً إسلامياً تبناه الإنجليز لمصلحة الاستعمار الغربى إذ لا شك أنه عمل عقلى إنسانى انطوى على محاولة جديدة طويلة المدى، صعبة المركب، لتغيير اتجاه الجماعة الإسلامية إلى ما لم تألفه، وإلى غير ما درج عليه اعتقادها.

المستشرقون... والاستعمار

الصورة الثانية من صورتى اتجاه حماية الاستعمار الغربى فى البلاد الإسلامية: يحكمها عمل المستشرقين، وتصوراتهم للإسلام وشرحهم لمبادئه، وبعثهم لخلافات المسلمين الماضية، وخلقهم خلافات أخرى لا يلتفت إليها المسلم، بعد ما صهر الإسلام علاقته بأخيه المسلم، وكون منها وحدة عديدة الطبقات والروابط.

وينطوى عمل الدارسين للإسلام من المستشرقين على نزعتين رئيسيتين:

*** النزعة الأولى:**

تمكين الاستعمار الغربى فى البلاد الإسلامية، وتمهيد النفوس بين سكان هذه البلاد لقبول النفوذ الأوربى والرضاء بولايته.

*** النزعة الثانية:**

الروح الصليبية فى دراسة الإسلام، تلك النزعة التى لبست ثوب البحث العلمى، وطلاها خدمة الغاية الإنسانية المشتركة.

• النزعة الأولى:

أما مظهر النزعة الأولى فيتجلى:

أولاً: فى إضعاف القيم الإسلامية.

ثانيًا: فى تمجيد القيم الغربية المسيحية.

*** وإضعاف القيم الإسلامية:** عن طريق شرح تعاليم الإسلام ومبادئه شرحًا يضعف فى المسلم تمسكه بالإسلام، ويقوى فى نفسه الشك فيه كدين، أو على الأقل كمنهج سلوكى يتفق وطبيعة الحياة القائمة.

فهذا «رينان» الفرنسى... يصور عقيدة التوحيد فى الإسلام بأنها عقيدة تؤدى إلى حيرة المسلم، كما تحط به كإنسان إلى أسفل الدرك، على حين أن عقيدة التوحيد مزية الإسلام، وآية على أنه الرسالة الكاملة الواضحة لخالق الكون فى كونه. كما أنها الطريق السليم والوحيد إلى رفع شأن الإنسان وتكريمه لأن صاحب

هذه العقيدة لا يخضع فى حياته لغير الله، ولا يتوجه فى طلب العون إلى غير الله سبحانه وتعالى.

ولكن رينان يقول، متحدثًا عن عقيدتى القدر والاختيار:

«المسائل الأساسية فى كل دين هى التى ترتبط بالقدر، والمغفرة والحساب. وهى كلمات ثلاثة مصبوغة بصبغة دينية تلقى فى النفس الاعتقاد بوعورة المسلك فى تفهمها، مع أنها من الأمور التى ينبغى الوقوف عليها والعلم بها مهما صعب منالها وتعذر مرامها. إن الدين هو الوسيلة التى تمهد للإنسان طريق الوصول إلى الحضرة الإلهية، أو بعبارة أخرى الواسطة فى وقوف المخلوق بين يدى الخالق.

«إذا تقرر ذلك، فهل الخالق بقدرته المطلقة يودع فى نفس المخلوق استعدادًا للعمل بمقتضى إرادته السرمدية، بحيث لا يحيد عما تأمره به هذه الإرادة؟؟ أم للإنسان متى تم خلقه إرادة خاصة يعمل بحسبها، واختيار مستقل لا يستمد من اختيار أسمى منه؟؟ وهل للإنسان الذى خلقه الله وسواه إرادة مطلقة من نفسه وتصرفه مطلق فى ذاته؟ أم ترجع جميع أعماله من خير وشر إلى القدرة الربانية القابضة على زمام الكون، والمسببة لوجوده فيه؟؟

وفى دائرة هذا البحث، تنحصر الخلافات الدينية والفلسفية التى لم يوفق دين من الأديان ولا مذهب فلسفى إلى حسمها بكيفية يقتنع بها الإدراك ويرضاها العقل. مع أن البحث فيها لإصابة هذا الغرض السامى لم يكن بالأمر الحديث، إذ طالما بحث فيها فلاسفة الأقدمين فلم يجدوا لها حلاً، وكان حظهم منها كحظ فلاسفة المتأخرين وعلمائهم.

«وغاية ما عرف منذ الأعصر السابقة إلى الآن، أنه وجد مذهبان تشاطرا فيما بينهما العقائد البشرية من تلك الوجهة المهمة: فالأول منهما يقول بتناهى الربوبية فى العظمة والعلو وجعل الإنسان فى حضيض الضعف ودرك الوهن، ويذهب الثانى إلى رفع مرتبة الإنسان وتخويله حق القربى من الذات الإلهية بما فطر عليه من إيمان وإرادة وبما أتاه من أعمال صالحات وحسنات».

«والنتيجة الطبيعية للاعتقاد بمذهب الفريق الأول هى: تحريض الإنسان على إغفال شئون نفسه وبث القنوط فى فؤاده وتثبيط همته وإيهان عزيمته، بينما تسوقه نتيجة الاعتقاد بمذهب الفريق الثانى إلى ميدان الجلاد والعمل وتلقى به فى غمرات التنافس الحيوى. ومن الأمثلة على الفريقين: البوذيون الذين يتدينون بدين يقضى عليهم بالتجرد. إذ من قواعده أن الإنسان والكون يفنيان فى الذات الإلهية.. وقدماء اليونان الذين يدينون بدين من قواعده تشبيه الإله بالإنسان فى أوصافه المادية، ويقضى عليهم هذا الدين بالعمل والحياة لاعتقادهم بأن الإنسان أو «البطل» يمكنه أن يصير فى عداد الآلهة بحسناته وخيراته».

«وقد ظهرت على أطلال العالم القديم بعد خمسمائة عام من انقضائه ديانتان: إحداهما ربانية، والثانية بشرية، تمثلان ذينك المذهبين المتناقضين، ولكن بتلطيف فى التناقض... أما الأولى (الديانة الربانية): فهى الديانة المسيحية الوارثة بلا واسطة آثار الآريين[1] والمقطوعة الصلات بالمرة مع مذهب السامية وإن كانت مشتقة منه وغصنا من دوحته. ومن خصائص هذه الديانة (المسيحية) ترقية شأن الإنسان بتقريبه من الحضرة الإلهية. على حين أن الديانة الثانية (البشرية) وهى الإسلام، المشوبة بتأثير مذهب السامية، تنحط بالإنسان إلى أسفل الدرك وترفع الإله عنه فى علاء لا نهاية له».

«هذان الميلان المختلفان يظهران ظهوراً واضحًا فى الاعتقاد الأساسى لكلتا الديانتين: وهو أصل الألوهية. أما المسيحى: فيذهب فى الأصل إلى الثالوث أى أن الإله الأب أوجد الإله الابن واتصل الاثنان بصلة هى روح القدس، وعليه فكون يسوع المسيح إلها وبشراً.. هذا الثالوث السرى، المشتقة أصوله من ضرورة إله بشرى يمحو ذنب الجنس البشرى ويفديه من الخطيئة التى اقترفها: يرفضه المسلم الذى يعتقد بوحدانية الرب، ويتمسك بهذا الاعتقاد تمسكًا شديداً حيث يقول: لا إله إلا الله!!

«غير أن إدراك المسيحيين من هذا القبيل هو أخف وأعلى وأجلب للثقة. إذ هو يحملهم على إتيان الأعمال التى تقربهم إلى الله حيث الوسائط بينهم وبين ذاته

---

(١) أليست البوذية ديانة الآريين؟

العليـة موصولـة، فى حين أن المسلمين تجعلهم ديانتـهم كمن يـهوى فى الفـضاء بحسب ناموس لا يتحول ولا يتبدل ولا حيلة فيه سوى متابعة الصلوات والدعوات والاسـتغـاثة بالله الأحـد الذى هو مـسـتودع الآمـال! ولفظة الإسـلام مـعناها: «الاستسلام المطلق لإرادة الله»!

«ترى الديانتين، أو بعبارة أخرى المدنيتين: المسيحـية والإسلامية، إحداهما بإزاء الأخرى، وتتـصل الاثنتان بعضهـما ببعض من حـيث المنشأ العام لهمـا. إذ هما مشتقتان من الأصول اليونانية والسامية، ومنهما استمدتا جانبًا من العقائد والمذاهب والآداب. فهما إذن متداخلتان من وجوه عدة، ولكن مـسافة الخلف بينهما شاسعة فى الحقيقة: من حيث البحث فى القدرة الإلهية والحرية البشرية»[1].

كتب هذا رينان فى الربع الأخير من القرن التـاسع عشر، وكان يظن أن العقلية العلميـة أو الطريق العلمى - الذى تدعى العقلية الغـربية المعاصرة أنه من مـفاخر القرن العشرين، لأنها تزعم أنها لا تخضع فى بحث المسائل وإصدار الأحكام لأثر حزبى أو مذهبى أو عـاطفى، أو نحو ذلك مما يتأثر بها الإنسـان العادى أو البدائى فى أحكامه - كـان يظن أن هذا القرن العشرين لا يصـدر فيه تصوير مـثل تصوير رينان للتثليث المسيحى مرة، وللتوحيد الإسلامى مرة أخرى!

ولكن مجلة "The Muslim World"[2] تردد هذا المعنى فى شرح آية: «إلى الله المصير» فتقول ما ترجمته:

«إن إله الإسلام متكبر جبار مترفع عن البشرية يطلب أن يسير العابد نحوه بينما إله المسيحية عطوف متواضع يتودد للناس، فظهر فى صورة بشر - وذلك هو الإله الابن! فعقـيدة التثليث فى المسيحيـة قربت الإنسان من الإله وأعطته نموذجًا رفـيعًا واقعيًا فى حـياته يسعى ليقترب منه... أمـا عقيدة التوحيد فـباعدت بين الإنسان والإله، وجعلت الإنسـان متشائمًا من شدة الخوف منه، ومن جبروته وكبريائه»!

وهذا مبدأ (الزكاة)... يفسره مستشرق على النحو الآتى:

---

(١) تاريخ الإمام: جـ٢ ص٤٠٧-٤٠٩.

(٢) عدد أكتوبر سنة ١٩٥٥، التى يصدرها دكتور Crayg مدير مؤسسة Hartford للدراسات الدينية والشرقية بالولايات المتحدة الأمريكية.

«إن الأموال المادية - فى نظر الإسلام - هى من أصل شيطانى نجس، ويحل للمسلم أن يتمتع بهذه الأموال شريطة أن يطهرها، وذلك بإرجاع هذه الأموال إلى الله»[1]!

ويظهر أن الشارح أخذ من قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا...﴾ [التوبة: ١٠٣]، أى أن الأموال نجسة فى أصلها، وإذن فالزكاة وسيلة تطهيرها وبذلك فهم التطهير فهمًا حرفيًا أو حسيًا!

وهذا الفهم الذى ذكره صاحب هذا الكتاب لمعنى الزكاة هنا، وبالتالى لموقف الإسلام من المال على أنه رجس، يردده غيره من المسيحيين القائمين على الدراسات الإسلامية فى الوقت الحاضر. ففى العدد رقم ٨٠ للسنة الثامنة والثمانين لصحيفة "The Montreal Star"بتاريخ ٥ أبريل سنة ١٩٥٦م، تحدث أب دومنيكانى يقيم فى مصر -وكان يقوم بإلقاء محاضرات عن علم الكلام الإسلامى بجامعة منتريال -عن النظرة الإسلامية فى الحياة فقال: (إن المسلمين يتجنبون الناس الذين يشتغلون بالمال، ويعتبرونهم أقرب للكلاب منهم للبشر)!

ومثل هذا التصوير لموقف الإسلام من المال، فى شعب كالشعب الأمريكى مادى النزعة، يسىء للإسلام والمسلمين أيما إساءة.

ويشرح الاستشراق المبدأ الإسلامى فى الزوجية - وهو مبدأ «قوامة الرجل على المرأة» - بفكرة التفوق "Superiority"ويجعل منه أمارة على نظرة الإسلام إلى وضع كل من الرجل والمرأة فى الحياة، فهو يسمو بالرجل إلى ذروة الرفعة بينما يهبط بالمرأة إلى هاوية الضعة!! أما «طاعة» المرأة للرجل فتعرض على أنها نوع من الإذلال، وسبب لفرض الرق والعبودية على نصف البشرية.... إلى غير ذلك مما يترتب على هذا الشرح المغرض!

ويفترض اللورد كرومر فى كتابه «مصر الحديثة»: أن الرجل المسلم يتمسك بالإسلام أشد من تمسك المرأة المسلمة بالإسلام! ويعلل هذا الافتراض - على أنه ظاهرة فى الحياة الإسلامية - بأنه يرجع إلى اختلاف وضعية كل من الرجل والمرأة فى الإسلام، على النحو المشار إليه من قبل.

---

(١) كتاب: دراسة عن الإسلام فى أفريقية السوداء: لمؤلفه فيليب فونداسى.

ويشرح المستشرقون مبدأ الإسلام فى «عدم قبول المسلم لولاية الأجنبى» بفكرة عدم التعاون مع الشعوب الأخرى، أو بفكرة النفرة من رياسة غير المسلم ولو كان ذا كفاية وأهلية للرياسة والتوجيه أكثر من المسلمين أنفسهم!

أما «الجهاد»: فهو عند هؤلاء فكرة الاعتداء نفسها، أعطاها الإسلام صبغة شرعية ودينية، كى يدفع بها المسلم لمهاجمة غير المسلم فى وقت أمن فيه على نفسه وعرضه وماله! إنها فكرة الغدر أو تشجيع العدوان. ولهذا الشرح أثر سيئ إلى أقصى حد فى علاقة الشعوب الغربية بالمسلمين، وفى تصورهم لحياة المسلم وأهدافه فى الحياة.

وهكذا يرى القوم فى مبدأ «عدم زواج المسلمة بغير المسلم» فكرة العنصرية القائمة على تمييز الشعوب بعضها على بعض، بدافع العصبية الكريهة أو بدافع الغرور، دون أن يكون هناك مبرر واقعى أو منطقى لهذا التمييز!

وفكرة (العودة إلى القرآن الكريم).. التى نادى بها ابن تيمية وتابعه فيها غيره من المصلحين بعده.. لدفع ما ساد من عصبية جاهلية للمذاهب الكلامية والفقهية، وما ترتب على ذلك من انقسام المسلمين إلى طوائف انقسامًا واضحًا! نادى ابن تيمية بها تطبيقًا لقول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾ [النساء: ٥٩]. وهذه الفكرة ترمى فى نظره: أولا إلى عدم تحكم الخلافات المذهبية والشروح العديدة المختلفة لتعاليم الإسلام من ظاهرية وباطنية وصوفية وفقهية - إلى غير ذلك فى توجيه المسلمين، وترمى ثانيًا إلى العودة إلى صفاء التعاليم الإسلامية وبساطتها قبل تعقيدها بالشروح المغرضة أو القائمة على تعسف وعدم استقامة فى تخريجها.. وبهذا وذلك يمكن للجماعة الإسلامية أن تعود إلى الوحدة أو على الأقل إلى التماسك أو عدم التضارب فى الآراء والسياسة.

ولكن المستشرقين عندما وقفوا على هذه الفكرة ورأوا أثرها الإيجابى فى حياة الجماعة الإسلامية المقبلة لو سارت فى طريقها الصحيح المرسوم لها، مالوا بها عن هذا الطريق، وشرحوها بأن معنى العودة إلى القرآن وإلى عصر

الصحابة الأول - رضوان الله عليهم - هو الرجوع إلى الحياة البدائية التى كانت للجماعة الإسلامية الأولى: فهى عندهم ليست سوى جماعة بدائية! ثم تراهم ينكرون على من يقول بهذه الفكرة أن يدعو إلى الإصلاح، إذ الإصلاح فى نظرهم هو التطور، هو الأخذ بأساليب المدنية الحديثة والقوانين المعاصرة وأسلوب الحكم الحديث، فإذا طلب إنسان العودة إلى العهد البدائى والأساليب البدائية باسم الإصلاح، فهو إما مدع للإصلاح، أو غير فاهم لمعنى الإصلاح!

* * *

وإذا ترك أصحاب الدراسات الإسلامية من المستشرقين دائرة شرح المبادئ الإسلامية بما يحرفها ويشوه هدفها على هذا النحو، فإنهم يتركونها إلى جانب آخر رئيسى: فى الحياة الإسلامية وفى صلات المسلمين بعضهم ببعض.. إنهم يتركون هذه الدائرة لينتقلوا إلى مجال العلاقات بين الشعوب الإسلامية، ليذكوا الفرقة القائمة، وليثيروا أسبابًا أخرى للقطيعة وعدم الاتصال: فيتحدثون عن الكرد والعرب فى العراق، وعما بين الجنسين من فوارق فى تصور الحياة وفهم العقيدة والأمانى القومية. وعلى هذا النحو يتحدثون عن المفارقات بين العرب والبربر فى شمالى أفريقية، وبين سكان الشمال وسكان الجنوب فى السودان، وبين السنة والشيعة فى بغداد أو فى إيران والبلاد الإسلامية الأخرى. وعلى الأخص يتحدثون عن العداء بين شعب الجزيرة العربية - وما يسود فيها من مذهب محمد بن عبدالوهاب من جانب، وشعبى العراق وإيران - وما يسود فيهما من اتجاه شيعى - من جانب آخر... يتحدثون عن الفجوة بين الحكومات والسياسات فى الدول الإسلامية... إلخ إلخ.

وإذا أكدوا ذلك باسم علم الأجناس، أو باسم طبيعة الشعوب، فإنهم يخلقون هوة أخرى فى الإسلام باسم تباين البيئة الجغرافية والعوامل الثقافية القديمة للشعوب الإسلامية، فالإسلام فى نظرهم ليس واحدًا وإنما هو متعدد، كان واحدًا أيام الفترة البدائية - هكذا يقولون - التى نزل فيها الوحى، وتوقف فيها المسلمون عن الشرح وسلموا أمرهم لمبدأ (التفويض) وركزوا جهودهم للإيمان والطاعة. ولكن بعد أن تدخل المسلمون بالشرح، وأدخلوا ثقافتهم القديمة ونزعاتهم الموروثة

فى شرح القـرآن وتعاليم الإسلام، لم يعد الإسـلام دينًا واحدًا[1]. بل هو ديانات إسلامية متعددة.. وكلها ديـانات ليس لها الطابع الإسلامى، بل ليس لها الاعتبار الدينى الإسـلامى كـذلك، فهناك إسلام الهند، وإسـلام تركيا؛ وإسـلام البربر فى شمال أفريقيا، وإسلام مصر، وإسلام الملايو، وأندونيسيا وإسلام الصحراء الكبرى وأفريقـية السـوداء.. وكل إسلام يختلـف عن الآخر، ولكل اعتـباره. والجـميع مسلمون، وأفهامهم فى الإسلام أفهام صـحيحة، إذ كلهم أخذ بالمصـادر الإسلامية وآمن بالرسالة المحمدية... هكذا يـستطرد منطقهم..

وفى هذا الشرح يدخل - بجـانب إيجاد ثغرات وفجوات بين المسلـمين بعضهم البعض - عامل آخـر: وهو عامل التأثر بالمسيـحية وبالاتجاه المسيـحى. فكثير من العلماء المسـيحيين يرون أن المسيـحية دين فردى، أو دين شـخصى، أو أنه يتكيف حسـب الفرد ويتأثر بشخصه. أى ليـست المسيحية دينًا يتكون من مبادئ، وإنما هى شعور فردى، وإحساس شخصى بالأصول المقدسة. إن الوحى المسيحى ليس كتابًا يتلى ويشرح، بل هو (عيسى) نفسه تستـحضر صفاته ويقتدى به فى نفس المؤمنين حسـب اختـلافهم فـى إدراك هذه الصفـات، وحسـب اختـلافهم فى تحـديدها. فالمسيحية -لأنها إحساس وشعور فردى - ليست واحدة فى التصور والتبعية، ومع ذلك فالمؤمنون بعيسى جميعًا مسيحيون مهما اختلفوا فيما بينهم.

وبهذا التصـور للمسيحية، تأثر هؤلاء فى الحكم على الإسـلام، بالإضافة إلى الرغبـة فى إضعـاف القيم الإسلامـية وتفـريق المسلمين. ولذلك لم يروا أن تاريخ الجماعة الإسلامية هو تاريخ لعـلاقة المسلمين فى أزمنتهم المختلفة بالإسلام، الذى تحددت أصوله واستقرت مبادئه بانتهاء الوحى المحمدى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] ولم يفهموا أن الزمن الذى يمر بالمسلمين هو زمن يمر على علاقتهم بالإسلام، وليس على الإسلام كدين وكرسالة من رسالات السماء... بل جعلوا الإسلام نفسه يتطور، ويضيف جديدًا إلى مبادئه بمرور الزمن، تحت تـأثير الأحداث المحلية والعالميـة. ومن هنا ينصحون

(١) يروج هذه الفكرة المستـشرق الكندى Wilfred Smith فى كتـابه: «الإسلام الحديث فى الهـند» باللغة الإنجليزية فى سنة ١٩٤٦.

المسلمين بعدم التمسك بالماضى البعيد أو القريب فى تاريخ الإسلام، وإنما عليهم أن يصوغوا الإسلام صياغة جديدة، ويبلوروه فى صورة تلائم المدنية الإنسانية القائمة، إذ ما صلح للماضى لا يصلح للحاضر، لأن صلاحيته كانت مؤقتة ومقيدة بظروف العهد الذى ولى!! والمدنية الإسلامية فى تطورها هى التى تملى على المسلمين تكييف الإسلام. ومعنى ذلك أن الإسلام الأول - ومنه فهم المسلمين الأول للقرآن - قد انتهى اعتباره، والزمن وحده هو العامل الأساسى فى صياغة الإسلام صياغة جديدة، وفى جعل المسلمين يسايرون المدنية الحديثة، بما فيها من قانون، ومثل عليا للحياة، ونظم للحكم، وأسس لبناء الجماعة وعلاقة الشعوب بعضها ببعض. والإسلام كدين ليس مبادئ إذن، بل هو مجرد نزعة إلى تحسين الإنسان والعمل على صفاء نفسه.

وكما أن الإسلام ليس واحدًا، إنما هو متعدد حسب تعدد شعوبه وحسب اختلاف العوامل الثقافية التى تأثر بها مسلمو هذه الشعوب فى فهم القرآن. كذلك هو متعدد حسب طوائف المسلمين: فهناك: إسلام المتصوفة وإسلام الفقهاء، ومتعدد حسب مصادره فهناك: إسلام القرآن الذى يختلف عن إسلام الحديث والسنة، ويجب أن يمنح الاعتبار للجميع، مع ما قد يكون - وكثيرًا ما يكون - بين بعضها بعضًا من اختلاف يصل إلى درجة التناقض، إذ إن جميع هذه الأنواع من الإسلام حقائق تاريخية سجلها التاريخ للمسلمين فى صلتهم بدينهم وهو الإسلام.

وهاتان الفكرتان: وهما فكرة تجدد الإسلام تبعًا لأحداث الزمن وتوقيت بعض أحكامه ومبادئه، وفكرة تعدده كديانات حسب الشعوب المؤمنة به أو حسب طوائفه ومصادره - فكرتان لهما كثير من السيادة والسلطان على اتجاه كثير من المسلمين اليوم فى مصر وخارج مصر فى البلاد الإسلامية. وبلغ من تأثيرهما على متعلمى الشرق الإسلامى أن وجدنا عددًا من المشتغلين بعرض الثقافة الإسلامية يروج لهما، ويدعو إليهما بطرق متعددة.

وتكييف المستشرقين الإسلام على أنه نزعة روحية إلى تحسين الإنسان والعمل على صفاء نفسه، يستتبع أيضًا إبعاد الإسلام عن مجال علاقات الأفراد بعضها ببعض فى نظام عام، يعبر عنه بالدولة أو الأمة أو الحكومة. ولو وجد اليوم بين

الكتاب المسلمين من يقرر أن الإسلام بعيد عن أن توجد فيه هيئة للإرشاد الدينى توفرت على دراسة الإسلام، لأنه دين شخصى لا هيمنة فيه لشخص على آخر - لو وجد هذا النوع من الكتاب لم يكن إلا مرددًا لفكرة دعا إليها الاستعمار وتسربت من الفهم المسيحى بوساطة بعض الدارسين للإسلام من المستشرقين.

* إن فكرة إبعاد الإسلام عن مجال العلاقات بين الأفراد... من وحى الاستعمار.

* وإن فكرة توقيت الجهاد بعهد الرسول ﷺ وعهد صحابته، أو فكرة إلغائه اليوم... فكرة استعمارية.

* وإن فكرة أن الظروف الدولية تدعو المسلم إلى الولاء لغير المسلم، وإلى رضائه بحكومته فكرة استعمارية.

* وإن فكرة أن الإسلام نفسه يتجدد ويخضع لعامل الزمن فى تطوره... فكرة استعمارية.

وتستتبع هذه الفكرة عدم التقيد بتعاليم الماضى جملة فى تكييف الحاضر.

* وإن فكرة أن الإسلام -كدين- يتعدد بتعدد شعوبه وأجناسه.. بتعدد مصادره.. فكرة استعمارية.

* وإن فكرة أن الإسلام دين فردى شخصى لا يصح أن يتدخل فى علاقات الأفراد بعضهم ببعض... فكرة مسيحية استعمارية.

وهى تستتبع ما يقال من وجوب الفصل بين ما يسمى دينًا وبين ما يسمى دولة.

* وإن تأسيس مبدأ الإسلام فى عدم زواج المسلمة بغير المسلم على فكرة العنصرية.. ومبدأ الجهاد فى سبيل الله على نزعة الميل إلى الاعتداء والغزو.. ومبدأ قوامة الرجل على المرأة فى الأسرة على فكرة التفوق الجنسى... وأمثال ذلك - من صنع الاستعمار، وأثر من آثار التمهيد للرضاء بحكمه، بعد ضياع الشخصية الإسلامية، وصهر مجموعة الشعوب الإسلامية فيما يسمى (بالعالمية) أو الإنسانية الدولية.

* * *

هذا بعض ما كـان من شأن إضعـاف القيم الإسـلامية والتـيئيس من التـضامن والتكتل الإسـلامى، كمظهـر من مظهـرى النزعة الأولى فى الفكر الإسـلامى فى صلته بالاستعمار الغربى، وهى نزعة تمكن للاستعمار الغربى فى البلاد الإسلامية.

أما المظهر الآخر لهذه النزعة، وهو مظهر تمجيد القيم الغربية المسيحية فى الفكر الإسـلامـى الحديث نتيجة لصلته بالاستعـمار الغربى: فالسبيل إلى الوقوف عليه ما تراه من إبراز التفوق الغـربى فى الصناعة، وزيادة الدخل الخاص والعام الناشئ عن هذا التفوق... تلك الزيادة التى ترتب عليها رفع مسـتوى المعيشة وتيسير أمر الحياة الإنسانية لدى الغربيين.

هذا التقدم الصناعى هو المنفذ ، أو النقطة التى يبتدئ منها الغربيون فى التدليل على رجاحة التوجيه الغربى، وعلى سمو مقاييس الحياة الغربية فى السلوك الفردى والعادات الاجتماعـية، وعلى أصالة القيم المسيحية، وقوة صلتـها بتحرير الإنسان من الجهل والفقر والمرض، وقوة صلتها كـذلك بانطلاق الإنسان فى الحياة من غير خوف أو وجل!

والحضارة المادية الصناعية... هى إذن عنوان هذه القيم!!!

ومنطق ذلك: أن تخلف المسلمـين فى مجـال هذه الحضـارة دليل على تخلف الإسلام فى قيمه ومبادئه، وعلى إذلاله الإنسان، وتقييده فى السير فى هذه الحياة، طبقًا لعقيدة الجبر فيه!

ما هى القيم المسيحيـة ذات الأثر الإيجابى فى هذه الحضارة الصناعية؟ أين هذه المبـادئ والقيم المسـيحـية فى عـرف كثـير مـن هؤلاء العلماء الدارسين للثـقافـة الإسلامية؟؟

ليس إلا (شخص عيسى)، يستوحى منه السلوك الخلقى فى هذه الحياة.

فليست هـناك صلة بين المسيحـية كـدين وبين هذه الحضارة الصناعـية الغـربية المادية، إلا أن المباشر لهذه الحضارة يعتنق المسيحية وينتسب إلى الشعوب المسيحية، وليس المسيـحية دينًا للحضـارة الإنسانية، وإنما هى دين للسلوك الفـردى فى الحياة الإنسانية.

ولكن تمجيد القيم الغربية المسيحية على هذا النحو، وبهذا الربط من علماء المسيحية الدارسين للإسلام، والعارضين لمبادئه فى الصور السابقة - أوجد صدى فى حياة المسلمين وفى نفوس بعض الكتاب والمفكرين من المسلمين. فالحديث عن العلم Science وعن الطريقة العلمية، والدعوة إلى مسايرة خطواته مقترنة بالتقليل من قيمة التراث الماضى - وهو التراث الإسلامى - ينبئ عن هذا الأثر. العلم يدعو إليه الإسلام وتدعو إليه الحياة نفسها، ولكن اقتران الدعوة إلى العلم بالغض من قيمة الإسلام آية على أن منطق ربط الحضارة الصناعية الغربية بالقيم المسيحية أخذ طريقه فى الحياة الإسلامية، وعلى أن المقابل لهذا الربط: وهو أن تخلف المسلمين إنما هو لتخلف مبادئ الإسلام وبدائيتها - له وزنه وأثره فى توجيه الفكر الإسلامى الصادر من المسلمين.

• النزعة الثانية:

أما النزعة الثانية فى دراسة الغربيين للإسلام والثقافة الإسلامية. وهى تأكيد الروح الصليبية فتتضح أيما وضوح فى كتابة المستشرقين الفرنسيين! فكتاباتهم لا تنبئ فحسب عن ميل لإضعاف المسلمين، بل تنم عن حقد على المسلمين، وعن سخرية وتهكم برسول الله ﷺ، وبرسالته الإلهية!

نعم... قام أساس الاستشراق على أن الإسلام من صنع محمد، فالإسلام دين بشرى، وعلى أن الرسول لفق فيه من المسيحية واليهودية، وأنه حرف فى نقله تعاليم هاتين الديانتين: إما لأنه لم يستطع فهمها - كما يذكرون، وإما لأن نفسه لم ترفع إلى مستوى عيسى حتى يتصوره على حقيقته، ولذلك أنكر محمد على عيسى أنه ابن الإله، وبالتالى أنكر التثليث، وتشبث بالتوحيد وببشرية الرسول، نعم: قام الاستشراق على مثل هذا الأساس، ولكن المستشرقين يختلفون فيما بينهم فى تصوير آرائهم، وفى تقرير شروحهم لمبادئ الإسلام. وأشدهم حدة وعاطفة وهوى جامحًا، وحيدة عن أدب الكتابة. فضلاً عن البعد عن الأسلوب العلمى فى الدراسة والحكمة، مستشرقو فرنسا، ومستشرقو الكثلكة على العموم فى أوربا وأمريكا.

ولو فتشنا عن السبب لوجدناه فى احتضان فرنسا للكثلكة، وفى زعامتها للحملات الصليبية الماضية لاسترداد بيت المقدس من البرابرة (المسلمين).

فروح الصليبية لم تزل حيـة فى نفوس الفرنسيين، ولم يزالوا يصدرون عنها فى أحكامهم عن الإسـلام والمسلمين، وفى معامـلاتهم للمسلمين كذلك، الخـاضعين لاستعمارهم أو لسيطرتهم بوجه ما، وفى وجـيه سياستهم نحو المسلمين الخارجين عن نفوذهم!

لم أر فى دراستى لـلاستشـراق حتى الان مسـيحـياً بروتستنتـيا عـالج التراث الإسلامى بأسلوب الكاثوليكى، ولا بروحه الحاقدة الجامحة!!

يقول (كيـمون) المستشـرق الفرنسى فى كتابه «باثولوجـيا الإسلام»: «إن الديانة المحمدية جذام تفشى بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكًا ذريعًا، بل هى مرض مريع، وشلل عام، وجنون ذهولى يبعث الإنسان على الخمول والكسل، ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء، ويدمن على معاقرة الخمور ويجمح فى القبائح، وما قبر محمد إلا عمود كهربائى يبـعث الجنون فى رؤوس المسلمين، ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر الصرع العامة والذهول العقلى، وتكرار لـفظة «الله» إلى ما لا نهاية، والتعود على عادات تنقلب إلى طباع أصيلة: ككراهة لحم الخنزير والنـبيذ، والموسيقى. وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور فى الذات...»[1]!

* * *

هذا الاتجاه من اتجاهى الفكر الإسـلامى الحديث فى صلته بالاستعـمار الغربى: هو الاتجاه المماليء للاستعمار والممـهد لحكمه والرضا به، سـواء كان من المسلمين أنفسـهـم أو من غيرهم. لأن تفكير غـير المسلمين فى هذا الاتجاه لم يبق منفـصلاً ولا بعيدًا عن العقليـة الإسلامية داخل البلاد الإسلاميـة، بل كان أهم رافد لتبلور هذا الاتجاه نفـسه بين المسلمين. وإن الحـديث عن الاستشـراق إذن هنا حديث عن خطر نفذ إلى المسلمين، ووجد أعوانًا له من أربـاب الفكر والقلم والعلم والسياسة فى الشـعوب الإسلامـية... ويكاد يكون هو العـامل الموجه لما نـسميـه بـ«الفكر الإسلامى المماليء للاستعمار الغربى».

هناك مصدر آخر لم أشأ الحديث عنه الآن...

---

(١) تاريخ الإمام: جـ٢ ص٩.

إنه كتب الرحلات التى كتبها الرحالون المسيحيون المتجولون فى الديار الإسلامية. فهذه الكتب كتبت بأسلوب تهكمى، وروح قصصية اختراعية، تغذى خيال الشعوب المسيحية الغربية والأمريكية، ولها أثرها السلبى فى تصوير الإسلام والمسلمين - وهو أثر قوى - على هذه الشعوب!

ولم أشأ الحديث عن هذه الكتب، لأن صلتها - كمظهر دخل البلاد الإسلامية - بالفكر الإسلامى واهية، ولأن أغلبها غير معروف للمسلمين حتى الآن.